السلطة واغتيال الذاكرة التاريخية في رواية "ضمير الغائب"

(الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر) لواسيني الأعرج

الأستاذ عبد الوهاب بوشليحة

جامعة الأمير عبد القادر–قسنطينة

الراوي وذاكرة التساؤل: تقدم الرواية البطل الإشكالي الذي يعكس ويبلور ويلخص معاناة وقلق مرحلة الثورة وما بعدها، بعد أن سادت الثورة المضادة، وتمت في قلب العملية السياسية سلسلة التراجعات والانتكاسات عن المشروع الثوري. فالرواية على هذا الصعيد، بدت رواية تؤرخ لضمير جيل، فهي تتضمن استبصارات معمقة في ضمير الجيل الثوري، وآليات تفكك الولاءات وتنقلها بين الجماعات السياسية المتناقضة. هذا التصدع الذي هو رمز الافتراق الثوري ببلور مواقف الشخصيات وتطورها خلال الأحداث، لذلك كان طبيعيا أن يتوقف الروائي عند لحظات حاسمة من تاريخ الحركة الوطنية، وهي فضلا عن الشهادة التي يقدمها عن حقبة بالغة الأهمية، يكشف عن النمط شبه الأوتوبيوغرافي « اسمي الحسين. اسم أبي المهدي بن محمد أحد شهداء البلاد التي احترق من أجلها، لكنها نسيت عظامه مرمية في وحشية الأحراش »[1].

إن السبب الذي يختفي وراء كتابة الإنسان للسيرة يتمثل في البحث عن توازن الشخصية، فالكاتب لا يبحث في الواقع « عن تغيير توازنه الحالي،

---

(1) واسيني الأعرج: ضمير الغائب (الشاهد الأخير على اغتيال مدن البحر) منشورات الفضاء الحر. ط 1، 2001. ص 10.

ولكن يهدف إلى جعل هذا التوازن الحالي محتملا ظرفيا »[1] في مجتمع ينشد فيه الفرد أن يكون مركز العالم « لأنه فقد كل الهياكل الجماعية التي يمكن أن تخفف من وطأة شعوره بذاته وتساعده على اكتشاف توازنه من خلال توازن المجموعة »[2] لذلك فإن منطق السيرة ليس الذات في انقطاع علاقتها بالآخر بل أن انقطاع العلاقة بالآخر -الأب- المجسد في موت الأب خاصة، بوصفه من أسباب الاختلال، وفقدان التوازن هو الدافع إلى السيرة، وبالتالي تمحو مفهوم الذات المستقلة وتضعها ضمن إطار جماعي وسياسي يشترك في الرؤية. لذلك فإن موت الأب يعد المحرك الأصلي لاسترجاع وطلب رؤية التاريخ. هكذا يتحدد الهاجس الأكبر الذي يختفي وراء الكتابة من حيث هو غاية أصيلة من غايات استرجاع الماضي الثوري والالتقاء به – إذ كل عملية الكتابة مشذوذة إلى هذه اللحظة شكلا ومضمونا. فمن حيث الشكل نحن أمام سيرة تتجاوز الذات لتصبح سيرة للأب وللشهداء، ومن حيث المضمون يبدو الاستذكار والاسترجاع محاولة لتأكيد اللحظة وترسيخها « أعطينا دمنا لهذه الأرض ولهذه العيون البريئة التي تملأ اليوم البلاد، قدمنا ما تبقى من نبض القلب المحروق وسحر ما تراه العين »[3] وشيئا فشيئا يتحول موت الأب – المهدي – إلى حزن عام يلف كل شيء – وإلى نوع من السوداوية التي تتجاوز حادثة الوفاة لتصير حزنا على النفس والعالم، ويتحول الحزن على

(1) فيليب لوجون: السيرة الذاتية – الميثاق والتاريخ الأدبي – تر: عمر حلي، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1994. ص 12.

(2) المرجع نفسه: ص 25.

(3) واسيني الأعرج: ضمير الغائب: ص 77.

موت الأب في ظروف غامضة إلى نوع من الهوس والصرخة البائسة المجروحة ضد التاريخ والثورة، وذلك كله يفسد صورة الحاضر الاستقلالي حيث يدمر الموت كل شيء، ويتحول الحزن أيضا إلى تمرد على مفهوم الموت، خاصة وهو يبحث عن سبب وفاة أبيه « أنا أصر على المهدي، أريد أن أعرف هذه الحقيقة الغريبة التي يتغامز بها الناس. إذا كان خائنا سأكون أول من يمحوه من الذاكرة وإذا كان شهيدا على هذه الدولة أن تقول الحقيقة اغتياله وأن تكف عن الكذب والزيف »[1] لكن الحزن على الموت ليس الشيء الوحيد الذي يؤرق الكاتب ويعذبه لأن التلاؤم مع هذه الفكرة وشعوره بدبيب النسيان في قلبه ووجدانه يؤرقه أكثر ويشعره بالخيانة والغدر. كيف يمكن له في لحظة ما أن يتعايش مع هذه الفكرة أو أن يتقبلها وهي ظلم. أن الفقد الحقيقي هو النسيان، وهو بذاته قبول لكل أنواع الفقد الأخرى التي سوف تقع لا محالة، بل حتى التلاؤم مع فكرة موت الذات والاستسلام لها « أولاد الكلب داروها بها. دفنونا ثم راحوا يبيعون ويشترون. وصلنا إلى الزمن الذي كنا نخافه. دفنونا أحياءا ثم عادوا منتصرين، يشربون نخب الشهداء، الدنيا تمشي بشكل معكوس »[2] وهكذا يستقر الشعور بالذنب مكونا أصيلا من مكونات الرواية وحافزا مهما على استدعاء الشهداء ورؤية الأحباب الراحلين. لأن الذنب كما يبدو هو الخيط الرابط بين كل صور الماضي وعناصر الحاضر – الاستقلال – وهو المجمع لكل الشهداء الذين عانوا من الإهمال والنسيان

(1) المصدر نفسه: ص 23

(2) المصدر نفسه: ص 58.

والجحود، وهو قبل ذلك الرابط الوحيد بالماضي والمهيج الأصلي للعاطفة والحاث الأول على التذكر ورفض فكرة النسيان « يا بابا المهدي لو تدري؟ إنهم يشككون في صفة الشهيد فيك » [1] وهكذا يعوض الفقد بحضور من نوع آخر فيقضي بذلك على ثنائية الكاتب فيلجأ إلى مبدأ العودة والاسترجاع الذهني العقلي قبل الانخراط في سيرورة التجلي لأن الحضور المعنوي لا يكفي بل يشعره أكثر بالفقد والرحمان ويعذبه، كأننا أمام أسطورة الأب الإله المحرك للتاريخ والحقيقة التي يعدّ تجسيدا لها.

إن قصة تجلي المهدي – الأب – تتحكم بشدة في كل القصص المرتبطة بها والمتولدة عنها، ومن ثم يمكن اعتبار قصة الأب أحد المكونات الأساسية للرواية، كما أن غاية القصة ذاتها تكشف عن دلالة أصيلة وهي بحث السارد عن أصله في زمن اليتم والفقد، لأن استعادة الحياة – الأب الشهيد – وإعادة رسم الطريق الذي سلكه في إطار التيار اليساري ضمن الحركة الوطنية، والبحث عن جزئيات تلك الحياة، وسيلة للوصول إلى حقيقة موته. فنحن منذ الوهلة الأولى في خضم تماه بين ذات السارد، وذات أبيه بكل ما يمثله الأب من جذور سياسية وإيديولوجية وهو أمر يحيلنا بالضرورة على أهم الأساسيات التي تقوم عليها الدائرة التاريخية السياسية بعد الاستقلال. وانطلاقا من إيقاع التجلي أو توالد الأفكار بعضها من بعض بدون ضابط، ترتبط صورة الأب بالوطن وبالتاريخ، فيهيج بذلك الشوق إلى الماضي وطلب الارتباط بالجذور والأصل، وهكذا يكتمل هذا العامل الحافز على التجلي والتذكر ويعاضده في

(1) المصدر نفسه: ص 62.

كل ذلك الخوف من الخيانة، لأن الخيانة هو الموت الحقيقي «متعبون يا الحسين، منذ أكثر من عشرين سنة والتهمة على ظهورنا، مع أننا قبلنا أن نذبح من الرقبة بالرغم من صدقنا مقابل أن تمحو المدينة أحكامها المسبقة، إنها التهمة التي لا تملك لحظة واحدة للتفكير ولا للدفاع عن النقص، التهمة ما تزال قائمة يا الحسين مثل الغصّة في صدر رجل مسلول يقاوم عبثا حالة الانهيار القاسية» [1] ويستعير السارد لتشخيص حدّة التعارض بين قيمه وبين العالم الذي يحياه مبدأ الثبات عندما يماثل بين زمن المهدي – الثورة – وزمن التجلي – الاستقلال – ويجعل منهما كونين متطابقين يكرر ثانيهما الأول على غرار تكرار مقولة الزمن في تجاويف القصة، والقول بدائرية هذا الزمن المغلق الذي يتنقل كتلة واحدة، ودفعة واحدة، يشغل مبدأ الثبات نفسه من خلال وهم الرجوع والعودة، أي وهم استرداد مرجعية التيار اليساري من حيث هي معبر عن الصمود والبناء ومناصرة الثورة. وبذلك يتشابك في عناق شخصية المهدي والحسين: الحاضر ويمثله السارد من خلال التماهي مع أبيه الماضي، والمستقبل وقوامه الحسين، فتدخل محنة الأب – المهدي – ضمن أطر تاريخية مختلفة يوحد بينهما زمن الخيانة، فالأب ضحية، والحسين بوصفه امتدادا إيديولوجيا له، وهنا يرحل الحسين إلى زمن الأب فيتحول إلى داع من دعاة الأخذ بالحقيقة التاريخية، معنى ذلك أن مشروع الكتابة يتحول هنا إلى دعوة تحتوي كل الممكنات لأن انسداد الأفق يستدعي بالضرورة عملية إجلاء تبحث في الماضي عن توازن ممكن في زمن فجع فيه السارد في كل آماله، وهنا

(1) المصدر السابق: ص 77.

يعظم الشعور بالذنب لدى الكاتب نفسه وكأنه يستعيد بذلك بعضا من ندم تاريخي متجذر في عمق وجدانه، ولعل ذلك هو الذي يبرر شكل السيرة، فهي تتخذ من التجلي وسيلة لتواصل منشود بين الزمن المعيشي وزمن الذاكرة التاريخية، ولذلك نجد أنفسنا بإزاء بحث عن هوية الأنا عبر النبش في جذورها وأصولها، فالأب – المهدي – هو نقطة البداية للوجود الفردي – الحسين – إنه علته الظاهرة غير أن هذه العلة معلولة هي ذاتها بكل ما تزامن معها وسبقها من حلقات التاريخ الذي لا انقطاع فيه، ومن رموز إنسانية تتماهى كلها من حيث دلالتها الإيديولوجية، ومن حيث خدمتها لوظيفة السيرة المعلن عنها منذ البداية، وهي البحث عن الحقيقة التاريخية.

ومن شأن هذا الارتباط الوظيفي بين اسمي المهدي والحسين من خلال اتصالهما مرجعيا بحركة سياسية -الحركة الوطنية – أن تثير قضية تعامل الروائي مع الحدث السياسي والخبر التاريخي حين يجمع رموز القداسة في سعيها التاريخي نحو الحقيقة – وحين يلجأ إلى خلق الموقف المشابه والذي يقتل فيه المهدي على شاكلة الحسين بن علي، ما يوحي بهذا المنظور العام للزمن الذي تشي به الرواية، وهو منظور يستند في معظم الأحيان إلى تصور يماثل الماضي والحاضر – الثورة والاستقلال – ويلغي الحدود بينهما بحثا عن تواصل ممكن بين حلقاتهما والكشف عن الطرف الثالث في بؤرة الصراع – السلطة – مما يجعل من تضمين الماضي في قلب الحاضر جزءا من مشروع إيديولوجي يقيمه الروائي من خلال خلق عناصر تماه بين الأسماء، وتبعا لذلك يتأسس منطق خطاب سياسي إيديولوجي ينطوي على موقف يسعى إلى جعل التيار اليساري في الحركة الوطنية في علاقته بالثورة شكلا واعيا وثوريا من حيث

تأصل هذا التيار في الثورة التحريرية، وفي شريحة اجتماعية تبنته وحملته في وجدانها. هكذا تنتهي ملحمة المهدي والشهداء إلى المنفى التاريخي، والنص إذ يقوده إلى مصيره التراجيدي فلأنها حتمية تاريخية اجتماعية سياسية لحمتها التحالف بين نخب الحركة الوطنية ضد اليسار مما يؤدي إلى شكل الصراع بين اليسار واليمين في الثورة التحريرية، وإذا كانت رسالة المهدي قد انتهت إلى هذا المصير الخائب، فإنما تكمن الخيبة في الواقع ذاته الذي تطرح الرواية نفسها كمعادل فني له، وليس لها إلا وأن تركن إلى حكم التاريخ، لكن أي تاريخ يخترق منظور النص؟ وأية رؤية معرفية تاريخية تحاول استعادته وتفكيكه وإعادة بنائه ؟.

* **الراوي وجدل السلطة والتاريخ** : إن الوعي السياسي لدى الروائي بطبيعة المرحلة التاريخية وأزماتها تشكل المرجعية السوسيو تاريخية لإدانة كل السلبيات والانهيارات التي تعاقبت أثناء الثورة. وفي هذا السياق تطرح مأساة الحسين بوصفه رمزا يلخص هموم جيل الاستقلال في معاناته مع هذه الأحداث، حيث تتداخل المصائر الشخصية وتنعكس عليها قرارات أعلى سلطة، فالخاص والعام هنا متداخل في جدلية فتقديم الحدث الرئيسي – موت المهدي – الفاجع والمحيّر، وما يدور حوله من تساؤلات خاصة وعامة تمس جدل الصراع السياسي الثوري نفسه الذي تم غالبا عبر الحضور المزدوج للراوي. بهذا المعنى فإن علاقة الفضاء الروائي التاريخي ذات طابع مزدوج ومتلازم، فبقدر ما يستمد زمن الحكي على مستوى الرواية مواده وتفاصيله وشخصياته وأحداثه من التاريخ الحي يعيد تفكيكه وبنائه وفق الطاقات التخييلية الخاصة للأسلوبية الروائية.

عند هذا الحدّ يصير من المسوغ، أن ينتج حس نضالي متميز، تمثل في انبثاق الحسين «بعض الأصدقاء المقربين جدا يجدون شبها كبيرا بين بؤس الحسين بن المهدي والحسين بن علي، لكني أرفض دوما هذا التشبيه، فأنا فخور بأن أكون ثمرة النصف الثاني من القرن العشرين» [1] فشخصية الحسين التراثية مرسومة تاريخيا في ضوء معطى سياسي وإيديولوجي جاهز، تفتقر من زاوية أخرى إلى ميزة التفاعل الحر مع أحداث الرواية، ذلك أن تطور هذه الشخصية محكوم بعدد من المتغيرات والحدود التي تكشف عن تمايزها بوصفها شخصية تراثية ذات صفات مثالية مطلقة حسب ما تشير إليه السيرة.

ولعل هذه المتغيرات ما تمليه شخصية الحسين الحاضرة في وعي المؤلف حضورا شاملا لجوانبها كافة، ومن هنا فإن التفاعل بين الحسين وأحداث الرواية وشخصياتها الأخرى ليس تفاعلا حرا، وإنما محكوم بمعطيات شخصية الحسين التي يسعى المؤلف إلى التحوير أو التغيير فيها، أما المتغير الثاني فيكمن في أن شخصيته تتجاوزها لتحيى في زمن الرواية وتتفاعل بالتالي مع شخصية حديثة في عصرنا، وهو التفاعل الذي يضفي على هذه الشخصية حيوية ومرونة متسقين مع معطياتها الأصيلة، وإن كانت مرونة غريبة في حياة الشخصية الواقعية في عصرها، فما كان يكون للعقل أن يقبل بحقيقة وقائع تقوم على فكرتي التلازم والمعاصرة بين شخصيات ذوات انتماءات زمنية مختلفة، كما هو الحال مع الحسين ابن علي والحسين ووالده المهدي، أما المتغير الأخير فلعله يكمن في المغزى وراء توظيف هذه الشخصية وما يحيط بها من

(1) المصدر السابق: ص 11.

الشخصيات المساندة أو المعارضة لتطلعاتها وأهدافها، أو ما يحيط بها من وقائع وأحداث فضلا عن بيئتها الزمانية والمكانية، وبالتالي فهي تكشف بيسر أنها قدمت من خلال ما تمت بلورته من حدود تجربتها الغنية معادلا موضوعيا لمضمون التجربة السياسية الجزائرية كونها أحد هموم الروائي الملتزم بقضايا مجتمعه وهمومه ومشكلاته، ذلك أن مرحلة الاستقلال التي طرحتها الرواية اتسمت بالصراع مع السلطة، مما يشير إلى أن الأفكار الإيديولوجية الثورية التي تعتمل في الحاضر ذات جذور في الماضي، بمعنى أن الاهتمام الرئيس للبطل الحسين هو الحاضر وليس الماضي، ودليل ذلك هو لجوءه إلى التاريخ لمعرفة أصول مشكلات الحاضر وأفكاره، بحيث يكون دليلا على دعوة الحسين إلى فهم الواقع وقراءته، وتكون سيرة المهدي نفسها البرهان الداخلي النفسي على هذه الدعوة، إذ يطرح مصير الشهادة والشهداء ضمن دائرة الثورة وتشويه تاريخ أجنحتها السياسية ومرجعيتها، ويصور حركته للخلاص من ذلك.

إن التاريخ الملموس للحاضر – الاستقلال – مملوء بالأفكار المضادة لليسار الثوري، خاصة وأن الجيل الجديد لم يشارك في صنعها، وإن أخذ على عاتقه البحث عن حقيقتها الثورية، من هنا يبدو الماضي الثوري ضرورة لتغذية العلاقة الحية بالحاضر، تلك العلاقة التي عبرت عنها حركة التاريخ نفسها فقد استطاع الروائي باقترابه من الحياة الشعبية الكشف عن أسرارها إنها حكاية جيل – ليس جيل الكاتب – يستحضرها عبر مخزون الذاكرة والتجربة المعيشة، فالكاتب – والأمر كذلك – يستند إلى مرجعية ثقافية في الإطلال على المرحلة المصورة روائيا، والمرجعية الثقافية تعتمد على المكتوب والشفهي ولهذا فهو ليس مضطرا لاستحضار المرحلة عبر التخييل المجرد لاستكناه

روحها، ما دامت الإمكانية متاحة لفتح حوار معها مباشرة عبر ما بقي على قيد الحياة من الذين عاشوها كفاعلين بها أو عاشوها كمراقبين حياديين أو من همشوا وأبعدوا من دائرة الثورة « فالتخييل الروائي ليس مرغما على صياغة واقع معادل عبر استحضار الحقائق العامة التي حكمت حركة الأحداث لإحداث الأثر بالواقعي، بل أنه قادر عليه دون مخاطر الانزلاق باتجاه التحريد والتذهين المفتعل» [1].

فقد استطاع تصوير الرغبة الكامنة لدى اليسار في الخلاص من المستعمر، وصور الأبطال الحقيقيين الذين جابهوا المحتل، و لم يجدوا فارقا بين نضالهم الثوري الوطني ونضال إخوانهم بمرجعياتهم ومواقفهم المخالفة لهم «أنا لا أعكس عليك زمني ولا أزمتي، أحاول فقط أن أفهمك حتى لا تخطئ وتندم العمر كله، أخطأنا في التقييم فقط، وها أنت ترى مازلنا ندفع الثمن حتى اليوم وندفعكم معنا الثمن نفسه، المسألة معقدة يا الحسين وتحتاج إلى لباقة وحنكة في التصرف، عليك أن ترتاح حتى يأتي فجر المدينة ليأخذك إلى حيث يجب أن تذهب، وأنا كذلك يجب أن أرتاح قليلا، ومهما يكن، فلن يأخذونا إلى أعواد المشانق بالبساطة التي يتصورون، سترى» [2].

من هنا يمكن القول أن شخصية الراوي رغم تشابهها في الانتماء مع شخصية المهدي، كانت بيّنة الاختلاف من حيث تطورها، ذلك أنها ألصق وأعمق تفاعلا مع عناصر الرواية الموضوعية والفنية، فإذا كان قد اتضح لنا

(1) عبد الرزاق عيد، وحميد جمال باروت: الرواية والتاريخ، دار الحوار، سورية [د، ت] ص 113.

(2) واسيني الأعرج: ضمير الغائب: ص 234.

سابقا أن شخصية المهدي تميزت بتوظيفها على أساس أنها ذات تجربة مكتملة، فإنه يظهر لنا بالمقابل أن الراوي ظل على مدى الرواية يسعى باتجاه الاكتمال، و لم يكد الكاتب ينجح في الوصول إلى غاية جلاء معالمه ورصد تجاربه وأبعاد همومه ومشكلاته إلا في إطار من التفاعل الجذري والمتتابع مع العناصر المتحكمة في بنية الرواية إلى درجة أن القلق بما هو أحد مشكلاته العقلية والنفسية ظل يلاحقه منذ صرخته « خسارة الدم اللي ضاع، خسارة الدم اللي ضاع » [1] فالمستوى النفسي للراوي لا يكاد يلتزم خلال السرد خطا منتظما تصاعديا أو تنازليا، بل خطا متعرجا مع طبيعة الأحداث والمشاهدات ومواقف الاسترجاع التي لا يحكمها قانون التسلسل، بل الاضطراد والقفز وتيار الوعي. في ضوء هذا المعطى، فإن بحث الحسين عن المهدي الشهيد هو بحث عن الهوية والذات، بحث عن المعنى، فإذا كانت التوقعات لم تخلص إلى نتيجة واحدة، الاستشهاد في إحدى ساحات النضال ضد العدو، أو الاغتيال على أيدي فئة معينة لها مصلحة في إخفاء جسده وروحه فإن البحث عن الأب هو بحث الكاتب الإنسان، أو الكاتب الراوي عن معنى الحياة وسط الزيف التاريخي والأحكام المسبقة، ليس من خلال شخصية المهدي فحسب، ولكن من خلال العالم الذي غمرته شخصيات الرواية وتحركت في دهاليزه ومنعرجاته، فالكاتب يترك الشخصية تمتلك وعيها وتستعيد ذاكرتها لتتحدث بمعرفة أقرب إلى اليقين، وبشواهد تشير إلى الحقيقة الناصعة، حتى نكاد نتصور أن الكاتب يراوغ هنا باتخاذ هذه التقنيات الأسلوبية حيلة فنية في المقام الأول، فتغدو

---

(1) المصدر السابق: ص 14.

وجهة النظر جلية في امتدادها من الذات إلى الآخر، ومن المحلي إلى الإنساني « لن أتصرف في أية كلمة الجريدة L'ECHO D'ORAN، المانشيت الكبير: سقوط إرهابي جديد، السنة 1959، استطاعت الشرطة الفرنسية ليلة أمس أن تضع حدا للإرهابي الأحمر، المدعو المهد بن محمد أو السي عبد الكريم، هو وجماعته، لا أحد وجد جثته لكن يحتمل أن يكون إرهابيون من أصدقائه قد أخذوها، وفاته مؤكدة باعتراف جرائدهم السرية » [1] وفي التاريخ نفسه نشرت «الجريدة الفرنسية L'HUMANITE المانشيت الكبير، الدم الضائع، السنة: 1959، الثورة بدأت تأكل بعضها، ظهر البارحة المهدي بن محمد في ظروف غامضة، وهو ثالث شخصية مسؤولة تسقط في ظرف أقل من شهر واحد، يحتمل أن يكون قتله نتيجة خلافات داخلية» [2] في حين نشرت الجرائد العربية «سقط في ميدان الشرف شهيد الثورة المهدي بن محمد المدعو سي عبد الكريم، وهو يؤدي واجبه الوطني في ساعة متأخرة من ليلة البارحة إنا لله وإنا إليه راجعون» [3] إن موت المهدي التي يعيد فيها الحسين النظر، لا زالت إشكالا يبحث عن معناه الفعلي في الواقع حتى اللحظة الراهنة، ودهشة الحسين تجاه صياغات الصحافة الوطنية والأجنبية، هي دهشة المثقف الجزائري ذاتها تجاه الثورة التي لازالت إشكالاتها راهنة وتثير الحوار والنقاش والتجاذب والتنافر منذ الثورة حتى الآن، وإن إخفاق مثل هذه الحقائق التاريخية وانكسار طموح النخبة بعد الاستقلال، هو انحسار أحلام جيل الاستقلال في الإطلاع

(1) المصدر السابق: ص 72.

(2) المصدر السابق: ص 73.

(3) المصدر السابق: ص 73.

على الحقيقة التاريخية، فالموقف الذي يستدعي مواجهة سياسية ديمقراطية في إطار الحركة الوطنية تحول في النص إلى تصادم – كان الموقف الوطني اليساري ضحيته.

إن مواقف الصحافة الأجنبية والوطنية تضع المرء في لب الإشكالية المركزية التي تؤطر الرؤية الفكرية وأطروحة سيرة المهدي وشهداء اليسار، ومن خلال الصيغ التعبيرية: الإرهابي الأحمر – جماعته – إرهابيون من أصدقائه – اعتراف جرائدهم السرية – الثورة بدأت تأكل بعضها – في ظروف غامضة – سقط في ميدان الشرف – يؤدي وجبه الوطني – إنا لله وإنا إليه راجعون –.

يمكن استخلاص أهم عناصر الرؤية التي تنتظم حمولة النص وأطروحته، وهي الخطوط العريضة لإشكالية وهي الحسين بن المهدي بوصفه الشخصية المحورية المصادرة في بطولتها. وبالتالي انهيار رؤية جيل الاستقلال الذي كان يحلم بنهوض تاريخي و ثوري، وبالتالي فمواجهة الواقع السياسي والمراهنة على الخيار الفردي – رهان إيديولوجي – في ظل وضع متسم بالركود والتخلف والتأخر التاريخي سيقود الحسين إلى بلورة مشروع حلقة اليسار في البحث عن حقيقة المهدي وحقيقة اليسار الجزائري وحضوره التاريخي الثوري. فالفرد عندما يعجز عن الانخراط في مدّ الحركة التاريخية على الصعيد السياسي – بالمعنى المباشر للكلمة – يحتل المتخيل التاريخي مركزا في وعي الذات ليقدم في التحديد الأخير كتعويض عن الإخفاقات وبالتالي تكون تلك الانتصارات الوهمية للذهن كتعويض عن الإخفاقات الفعلية في الواقع لذلك فالخط الفكري الذي راهنت عليه رؤية الكاتب يتمفصل بين أوهام الانتصارات الذهنية

والإخفاق التاريخي للبطل وجيله لـدروب الجـدل المعـاق بـين بطولـة الـذهن الفردي وبين زيف التاريخ من هنـا تنـهض الرويـة كصـرخة في وجـه زيـف التاريخ الرسمي. كنداء ضد تفكك الحلم المحجوز لجيـل الاسـتقلال الـذي خضـع لهزة التزييف التاريخي التي لم تكون أقل عنفا مـن التزييـف الاسـتعماري سـواء على صعيد الواقع أو على صعيد القيم التاريخية الموازيـة لـذلك الواقـع ، وبالتـالي يحاول الراوي أن يقدم لنا صورة من خلال جميع الوثائق وإعـادة قراءتهـا يتقابـل فيها الذاتي بالموضوعي، الفكري بالعـاطفي، السـيرذاتي بالتـاريخي. لـذا تقـوم الجدلية بين زمن ممتد منفتح وزمن مغلق محدد، الأول يستمد تشـابكه مـن الـذاتي – الكتاب – والمغلق من الواقع الخـارجي الموضـوعي المحكـوم بمنظومـة الـزمن الموضوعي – الماضـي - - الحاضـر – المسـتقبل - لتقـديم اللحظـة أو الفتـرة المكثفة عبر التقاط جوهرها، لا عبر الخضـوع لمنظومـة تتابعهـا التـاريخي الـذي تخضع له الحياة الخارجية لكل الناس.

فالزمان ليس نسق تفاعل الأحداث فحسب بل هو نسـق تفاعـل الحـدث الروائي بتعبيره الزمني مع زمن الكاتب ووعيه للزمن، مع كل ما يـوحي بـه مـن انفصال على اعتبار أن العمل الفني من خلقه هو بذاته.[1]

إن المراهنة على كشف سيرة الذهن، هي المراهنـة في الوقـت ذاتـه علـى رصد مسارات قيم الوطن والتاريخ أي تلـك القـيم الـتي تحكمـت في تشـكيل ذهنية جيل الحسين – جيـل الاسـتقلال - وجـد نفسـه أمـام سـؤال كـبير

(1) عبد الرزاق عيد : قلوب على الأسلاك. عطلة البناء وتخلخل البنية وانحطاط القيم : مجلة الطريق : ع4.أب / أغسطس

« الحسين. قلت لك في المرة الماضية أنك تلعب بالنار. ألغ فكرة التحقيق وسأتدبر البقية مع الأجهزة. وطي صوتك. المهدي في صدري يسمعك (..) قلت لك انك مازلت صغيرا عن ممارسة هذه اللعبة القدرة. لكنك حين ركبت رأسك لا تسمع إلا لنفسك. النفس أمارة بالسوء يا الحسين. استيقظ قبل فوات الأوان يرحم والديك»[1] وفي محاولاته المتنوعة للإجابة، قُدّر له أن يعيش التحول في الواقع، وتمزق التحول في الوعي المدرك لذلك الواقع، فبين الطموح والإحباط، بين الحلم والكابوس، بين القوة والضعف، سيتشكل وعي واجه إشكالية الموقف في لج الثنائيات الحادة والمثيرة : الاستعمار الاستقلال، الوطنية الخيانة، الانخراط في تاريخ الجماعة، إيثار الذات والمراهنة على تاريخ الأنا. هذه الموضوعة ستكون محورا رئيسيا بحكم إيديولوجيا النص على مسار ضمير الغائب وستدفع حتى أقصاها في تحديد شكل الصراع التاريخي السياسي في الحدود الذي يسمح فيه وعي الحي والمهدي لتخطي أشكال الحزبي في سبيل امتلاك الوعي الوطني – وعي اليسار –

هذه الموضوعة كانت العنصر المدمر في رسالة الخطاب الإيديولوجي لجيل الاستقلال فهي التي تحدد آليات الصراع والمواجهة والاتفاق والاختلاف والتواصل والتفاصل من اجل الكشف عن وعي اليسار بمشكلة الثورة في زمن الهيمنة الكلية للتاريخ الرسمي وللزيف التاريخ. ولذلك كان السؤال المركزي الذي يستقطب وعي شخصية الحسين لذاتها الوطنية والتاريخية ينهض على موضوعة ما الفرق بين الشهداء – شهداء اليسار وشهداء اليمين. ويبدوا أن

(1) داسني الأعرج .ضمير الغائب : ص 209

هذا السؤال الذي يؤرق نص — ضمير الغائب - يشيّده الكاتب من تاريخ الثورة ليصفع به وجه الحاضر— الاستقلال

الراوي بين الأزمة والموقف: ليس وضع المهدي التاريخي إلا الرمز الحاد الجارح يمكن أن يبلغه العجز الثوري في حده الأقصى، فموت المهدي ليس إلا ظاهر موت الآخر، أكثر احتمالا يصيب أولئك الذين يحملون وعيا زائفا، لذلك تشكل هذه النية في إدانتها لموت المهدي توضيحا بيان العدمية أي حل يقوم على الهرب من مواجهة الحقيقة التاريخية، لذلك فإن استعادة الموت في إطارها التاريخي وفي بعدها السياسي الإيديولوجي، والرجوع إلى الذكريات وتدفق الأحداث العابرة في ذاكرة وعي الراوي ضرورية لإعطائها البنية التاريخية النفسية الخاصة في وحدة كيانية تستقيم فيها الموقف ودلالاتها. وفي السياق البنيوي العام للرواية. يصبح هذا الإصرار على استعادة الموت — الشهادة- لفهم حاضر الموت والشهادة على حقيقة أبعد من تقنية روائية يلجأ إليها الروائي لإعطاء حيوية وبعد معاصر لإشكالية التصفية الجسدية في النص الروائي، ويجعله ينهض على رهافة تركيبية لمواقف الأحداث المتداخلة في زحم حدث يعطيها في مأساوية القاتلة الأبعاد الحقيقية لوضع تاريخي، يصبح وجها من وجوه التمسك بالأصول الإيديولوجية، على أن هذا التمسك يتيح لواقع اليسار بعد الاستقلال رؤية تاريخية وسياسية حقيقية تنهض لتحطيم كل الزيف الذي يغلفه، وبالتالي تفتح الباب واسعا أمام شرعيته التاريخية والثورية، وتحرره من الأحكام المسبقة القاتلة، ضمن هذه المعطيات ليست الحدود الوهمية التاريخية بين اليمين واليسار إلا تكريسا للصراع التاريخي خاصة نهايتها الخطرة في إسقاط صفة الشهيد — الشهادة - يعني ذلك تبديدا للقوة التي يمكن لها أن

تواجه الزيف التاريخي للعدو واستعادة الشخصية الوطنية وحياتها القومية والتاريخية، إلا أن ظاهرة العجز التاريخي العامة التي تسم مرحلة الاستقلال، لا تتبدى في النص الروائي باستواء ووحدة بل على عكس تتمثل على اختلاف وتمايز يحملان دلالاتها الخاصة في توضيح الأدوار المساهمة في هذا العجز، وبالتالي المسؤوليات المختلفة التي تترتب على القائمين به.

هكذا تنتج الرواية المعادل الفني الجمالي للإشكالية المركزية التي تشعل التاريخ الوطني وذلك بمواجهة اللحظة التاريخية وطرح السؤال حول مصداقيتها. هل تلك اللحظة هي بداية الشروع في دخول التاريخ أم بداية تأبيد لحظة الخروج منه؟ الرواية تطرح نفسها في صلب الإشكالية مشرعة أسئلتها وتساؤلاتها، إن كان هذا الحاضر -الاستقلال – ثمرة ذلك الماضي أم أن هذا الحاضر هو تقهقر وتردي مستمر عن تلك اللحظة التي كان فيها الراوي قادر على المقاومة والتحدي والتمرد .

إن المواقع المختلفة لشخصية الحسين تتيح لنا أن نجد فيها ضمن الأبعاد الزمنية للبنية الروائية أدوارا محددة يجدر إيضاحها. إن الموقع المتميز للبطل الحسين، يجعله يحتل في العلاقات الاجتماعية التاريخية التي تقدمها رمزية الرواية، موقع الجيل المثقف اليساري لمرحلة الاستقلال، الذي غدا شاغله الأساسي العودة إلى التاريخ وإلى الثورة بمثابة لحظة تشكيل الوعي السياسي لمحاكمة الحاضر على ضوء الإشكالات التي أنتجتها لحظة التقاطع والانفصال التاريخي منذ بداية الاستقلال بمعنى آخر لا يكشف هذا العالم إلا بقدر التفاعل مع الواقع الموضوعي إذا يشكل هذا الواقع مرجع خصوصية البطل الروائي وتميزه وفرديته، وليس الواقع الموضوعي في التحليل الأخير سوى اسم أن آخر

لعلاقات الحياة التي تضطلع بدور حاسم في تحديد مصير البطل واليسار بشكل عام « حذرناك و لم تستفيد من الفرصة. راعيناك لأنك صديق امرأة نقدرها ولا تستحقها، لا أتذكر أنكم حذرتموني في المرة الماضية كنت قادما من مهمة في البلديات البعيدة لفائدة رجل يزورك ليلا سمى نفسه تمويها المهدي بن محمد. استقلت من الجريدة، وزاويتك حولتها الجريدة لأنها أصبحت تمس أمن البلاد. ماذا تريد أكثر من هذا التصدق بأننا لا ننام» [1] إن بنية السرد تناقضية صراعية، يصل فيها الاصطدام بين البطل والسلطة ذروته التوترية الدرامية. أمام هذا الوضع، تتشظى الحقيقة في الرواية، حقيقة كتابة تاريخ الثورة، وتاريخ الشهداء الذين أراد الآخرون كتابته وتزييفه، وتتغيب الحقيقة والحريات الأساسية للثورة. انطلاقا من مجموع هذه التداخلات تغدوا الرواية عبارة عن تضاد مجموعة من الخطابات واللغات فيما بينها وذلك لأجل خدمة البعد السياسي الإيديولوجي، وهو البعد الذي استطاع الراوي تلغيمه بوقائع تخييلية وتوهيمية يحيها الروائي لأجل خدمة الأبعاد المرجعية والمضمرة في النص، انطلاقا من رؤية جديد للواقع المروي « انحنى بقامته العملاقة علي وقبلني على وجهي ويدي. كانت قبلته حارة مثل الجمرة، هو كذلك كان حزينا. تحمل عذابات أكثر من عشرين سنة من النسيان. رتب على كتفي ثم هزني بقوة. واش بك يا الحسين ؟مازلت ابن البلدة ومعدن ثمينا. أنهم يريدون أن يقنعوك بأنك رجل مخصي، إنه الحلم الدموي المشوه الذي أسكنوه بدماغك مند أن فتحت عيناك في هذه البلاد الواسعة. لا تستسلم. الشهداء لا

(1)-المصدر السابق : ص 213-214.

يناموا .ما تغلطش .بدأت الأشياء الصدئة تتحرك في رأسي. ومع ذلك يا المهدي فقد خصوني وهذه بقع الدم تملأ سروالي. لقد فكرت في لحظة من أن أخون دمك. وأن أتراجع. ومن يفكر في شيء مثل هذا معناه أنه قادر على القيام به حين يتوفر له الظرف المناسب. رأيت فجأة وجه يتجهم ويصير داكنا مثل غبار الرماد. قلت لك مازلت قادرا على الوقوف على ركبتيك بقوة. لا تكن صغيرا يا بن المهدي بن محمد . لا تكن ساقطا في زمن صعب وكان كهذا. فجأة بدأ الصحو يدخل قلبي وعيني [1]» فالقصة الداخلية لدى الراوي لا تبرز الطابع المتعادي للواقع فحسب، بل هي تبدي التركيبة النفسية للبطل من حيث هي نتاج لهذا القهر النازل بجل الاستقلال، وعلى ضوء هذه المسألة نملك أن نفهم لماذا كان خصي واغتصاب الجسد تعبيرا عن عدوانية دموية مباطنة، وهو بالطبع وجه بارز من وجوه سادية السلطة، وهي يعني أن الاغتصاب تمظهر لاغتصاب التاريخ وحقيقة شهداء الثورة ذوي الانتماء اليساري.

إن تيمة الخصي – خصي التاريخ – تجسيد للصورة والإرغامات المرتبطة بهذا الوطن **الإشكالي في مرحلة كان فيها في الأمس** الحاجة إلى رموزه، وإلى دحض جميع أساليب التفكير السلطوية. تلك التي كانت –وما تزال– تهجع في القهر التاريخي، **لكي تطفو عند الضرورة** على السطح، وهي تتسلل إلى ذاكرة الأجيال **ووجوده كان همّها الوحيد فقط**، هو البحث عن ترصيع

---

(1) – الصدر نفسه، ص 53.

بماء تاريخنا الثوري الحديث، وترميم ذكرتنا الجماعية خاصة بعد خروج المجتمع من مرحلة الاستعمار ودخول مرحلة سياسية أسوء.

بموازاة مع هذه الأجواء، تعرف الرواية تحولا في مجرى الأحداث، ويبدأ البحث من جديد ليس عن المهدي الشهيد – بل عن المهدي التاريخ، وبذلك يتبادل الوطن ورموزه لعبة الأقنعة والوهم والتوهيم، وتصبح لعبة الاستقلال لعبة وهمية هي أيضا، فمشروع المستشفى، إنما لأجل طمس جوانب من التاريخ الرسمي لمدينة وشهدائها، وتاريخ سيرتها « يقولون أن مشروع الأنوف، الألسن، يغيرون الأدمغة، يوسعون العيون حتى ترى بشكل أوسع وأدق، والآذان وأعضاء» هكذا تأخذنا الرواية إلى الإنصات لتفاصيل وهموم جيل بكامله وتاريخ مرحلة سياسية بكاملها أيضا. كما تحف في الهموم الذاتية والمجتمعية للراوي وفي الأسئلة التاريخية لجيل الاستقلال. بتعبير آخر تحويل الأوهام المتشظية إلى حقيقة من خلال ما يمكن تسميته هنا بلعبة الأقنعة. لعبة يتبادلها شخوص الرواية، حيث تضع أمامنا العديد من الاحتمالات ربما لأجل تقريبه من الحقيقة المتشظية والمحتملة في النص أمام انعدام اليقين. ومن ثم فإن الرهان العام للرواية يكمن في متابعتها لخاصية الوضع الإشكالي والوهمي لوطن ولمدينة شهدت العديد من التقلبات والأوضاع نتيجة لما طالها هي أيضا من فساد سياسي – مشروع المستشفى هو إذا شعور مستمر ومفتوح على المواجهة مرة أخرى، بين أسئلة الزمن والتاريخ والإيديولوجيا وبين أسئلة الحوافز، أسئلة الهوية والفقدان والبحث عن الذات .

إن فجيعة التاريخ التي عاشها جل الاستقلال جعلته يعاني من التوحد والغربة عن المجتمع الذي لا يرى فيه سوى صورة شديدة القتامة ومع أنه

رافض لكل ما يرى من زيف السلطة وينشد الحقيقة التاريخية الثورية، فإن رفضه يبقى أخيرا رفضا مشلولا، إذا يعجز عن تحطيم جدار الواقع السياسي السلطوي، حيث تظهر فيه متابعة الصحفي الحثيثة وهو يحمل آلامه وأسراره وخلال ذلك يلتقي ما أسمته الرواية - الوجوه الغامضة من سلالة بني كلبون - ومن خلال تفاصيل يومية تظهر معاناته، من معوقات كثيرة توضع في طريقه حتى لا يصل إلى الحقيقة . وبالتالي تتعمق البنية الدرامية حين يتعثر فتح ملف التحقيق إلى نهايته ،و حين يظهر الصراع – بين التخلي عما يسعى إليه أو يبقى مستمرا إلى النهاية – ليدفع روحه ثمنا لذلك دون أن يكشف ما يجب كشفه. وعبر تداعيات ونجوى ذاتية تبدو مريم حبيبته –الوطن الثورة – رمز النقاء والإخلاص والتضحية وأمل اليسار المشنوق، تلك التي اغتالتها المدينة. لتستدعي سورتها على شاكلة استدعاء خيانة المسار الثوري بعض أمثلة من السقوط التاريخي والثوري عبر تاريخ الثورة التحريرية، وبالتالي فالحاضر يوصفه جزء من المحلة الثورية ومنشطا لها يتخذ صورة رحلة فردية لبطل كاتب وسارد يتخذ من سيرته الذاتية ومن سيرة شهداء اليسار – المهدي – وسيلة تعكس وضعا مأساويا لجيل بأكمله وواقعا أفرزته شروط تاريخية وسياسية واجتماعية من خلال تجربة الاستقلال وظهور طبقة سياسية مناوئة لحقيقة اليسار الثوري وشهدائه، وشكل هذا أحد مقومات الخطاب المرجعي في علاقته بنبرة الخطاب الإيديولوجي المهيمنة على صوت الروائي وهو يحاور التاريخ متحدثا إلى القارئ بشكل مباشر وصريح مطمنا كل وجهات نظره ورؤيته للعالم. كما تكشف عن ذلك دلالة النص وهو يحبك عقيدته السياسية العامة انطلاقا من الأوضاع التي وصفها. ومن أوضاع متفرعة عنها من قبيل

فقدان الأصالة التاريخية وفقدان الثقة في الحاضر وفي المستقل. لذلك يتصدى المهدي للدفاع عن الشهداء فيتحول إلى كتلة نار متفجرة حارقة تخرج من النوافذ[1]، وينتهي الحسين إلى فعل استئصال كل الأشياء الزائدة [2] بوصفه شاهد على الحقيقة التاريخية .

هذا الحدث الكبير على مستوى الحركة التحررية الوطنية، دفعه النص ليكون خليفة ظلالية للحديث التاريخي الداخلي وهو يهيش سلسة متوازية من العقبات التي تفضي في التحديد الأخير إلى موقف، والنص بتطلعه إلى صياغة رؤية فقد أظهر عظمة البطل الحسين في مقاومته البطولية، ومن الواضح أن الروائي أراد أن يوازي بين الحدث وفاعله، وأن يتقى الأبعاد السوسيوتاريخية والإيديولوجيا للبطل، خاصة عندما أكد على مضمون الوعي الإيديولوجي المناضلة والمغتربة، عبر هذا الجدل بين مرجعيتين وموقفين - موقف اليمن وموقف اليسار -- تنشأ ما يسمى هيغل بالمفارقة الضرورية التي يعبر عنها بالقول « إن الجوهر الداخلي لما هو مطروح يبقى كما هو، إلا أن الثقافة المتقدمة في طرح وكشف الجوهري تتطلب تغيير في التعبير عن الأخير وشكله» [3] . إن الرواية على الرغم من أنها تنطلق من دافع ذاتي يبحث عن توضح شخصي، إلا أن هذا المنطلق ما هو إلا شرارة لكشف جماعي، إنساني. تريد أن تحفر في بنية الواقع التاريخي العميق، وتنتصر لكل القوى المجاهدة من

---

(1) -المصدر السابق : ص 269

(2) - المصدر نفسه : ص 252

(3) جورج لوكاش : الرواية التاريخية : ترجمة صالح جواد كاظم .وزارة الثقافة والفنون. العراق 1978.ص 75.

أجل الحق وجمال الحياة. وترغب الرواية أن تنسب التمجيد إلى من يستحقه من فئات الثورة دون حجب أو مصادرة لآخر، وأن تقبض على اليد التي اغتالت الشهادة وزيفت بيانات الواقع، واستمرت تمتد في أشكال عديدة من التشويه والتعويض زرع الحزن والبأس. حاولت الرواية أن تكن شيئا من أصوات المسحوقين والمصادرين والمتبعين، هؤلاء الذين كسبوا النصر ضد المحتل، والذين ضاع بعضهم في القرى المهملة أو في شوارع المدينة المعطلة عن الحياة الكريمة، والتي ينتهك عرضها كل يوم بصور عديدة غير إنسانية دون أن يستطيع النسق الجدير بهذه الحياة أن يفعل شيئا ضد أنساق مخيفة تطغى على كل شيء .